

مشروع مكافحة الأمية

على ضوء علم الاجتماع

للأستاذ فؤاد عوض واصف

—•••••—

في العدد ٥٨٦ من « الرسالة » الفراء كتب الدكتور محمد مندور مقالا تحت عنوان « مكافحة الشكالية » ، أراد فيه أن يرد على بحث لنا في مشروع مكافحة الأمية درسناء من وجهة النظر العلمية البحتة ، ونشرته جريدة القطم في العدد ١٧٢٥٤ ولم أشأ يومها أن أتولى الرد بنفسى على ما كتب الدكتور مندور مكثفياً في ذلك بما كتبه زملاء أفضل ، هذا فضلاً عن حرصى الشديد على أن لا يخرج الموضوع من مجاله العلمى إلى المجال السياسى . وائن كان مشروع مكافحة الأمية كما وضعت وزارة الشؤون الاجتماعية ، قد حظى بموافقة الغالبية الكبرى من الكتاب ، فإن مدارضنا لم نخرج عن كونها دراسة علمية مثزفة للمشروع ، كما ذكرت حريدة الجورنال ديجيت في عددها الصادر بتاريخ ١٧ سبتمبر سنة ١٩٤٤ بعنوان « مكافحة الأمية ، هل تأتى بئرها ؟ » (١) .

ولقد طلب إلى الكثيرون ، وقد توليت بمفردى معارضة مشروع مكافحة الأمية بصورته الحالية ، أن أعود إلى الكتابة في هذا الموضوع الخطير ، ولا سيما وأن الاهتمام به الآن كبير . يتلخص ما ذهبت إليه في بحثى ، في هذا السؤال « هل التعليم سبيل إلى الحضارة ، أم أن الحضارة سبيل إلى التعليم ؟ » . هل المدرسة هى التى تتقدم بالمجتمع وتلبسه ثوب الحضارة الحديثة ، أم أن المدرسة ظاهرة من ظواهر الحضارة ، ووسيلة مبتدعة من وسائلها تتأصل بواسطتها جذورها وتمتد فروعها ؟

إن دراسة التاريخ ، وهو معمل علم الاجتماع ، تدلنا على أن المدرسة في تاريخ الحضارات تأتى متأخرة بعد أن تكون الأذهان

La lutte contre Pánalphabétisme portera-t-elle ses fruits

قد تهيأت لها ، وبعد أن تكون الشعوب قد نالت من المدنية حظاً ؛ لم تكن المدرسة في يوم من الأيام وسيلة من وسائل التحول الحضارى في شعب متأخر ، ولم يكن قبس العلم في عصر من العصور نوراً هادياً لشعب لم ينل حظاً من الحضارة والمدنية . وهذه فرنسا أم الدنيات كما يقال في العصر الحديث ، هل كان موتسكيو وفولتير وجان جاك روسو هم الذين خلقوا الثورة الفرنسية — ثورة الحضارة الحديثة — بتعاليمهم ومبادئهم ؟ . إن هذه التعاليم والمبادئ لم تكن في الواقع إلا تفسيراً لمعان كامنة في الشعب الفرنسى النائر . لم تكن الثورة الفرنسية لتولد ولا كان للتعاليم الحديثة من يرجع صداها ، إذا لم يكن الشعب الفرنسى قد تنبه بعد إلى معانى الحق وارتقى وعيه الجمى .

ولكن لماذا نذهب بعيداً ، وأمامنا التاريخ المصرى الخافل ؟ عند ما أراد ماسكن الجنان محمد على أن ينشئ المدارس ويعد المعلمين ، هل تراه قد صادف في عصره نجاحاً ملحوظاً ، وهو الذى ابتدع في وسائل الترغيب للتعليم ما ابتدع ، فكان يدفع للتلميذ راتباً شهرياً ويتكفل بكل نفقاته ؟ ... لقد كان حرب التلاميذ من المدرسة هروب الرجال من المدنية . وأما الآن وقد بلغ الوعي الجمى في المدنية المصرية ما بلغ ، فإن الشكوى لترتفع طالبة زيادة المدارس ، فلا تقرر المدرسة فرضاً « وإنما ترجى رجاء » .

وذلك هو الوضع الحقيقى للمشكلة . ليست المدرسة هى التى تتقدم بالمجتمع وإنما المدرسة ظاهرة من ظواهر المجتمع المتقدم وما هو المجتمع المتقدم ؟ ... إنه ذلك المجتمع الذى يهي بنفسه وسائل نموه الحضارى ، هو ذلك المجتمع الذى إذا فتحت فيه مدرسة لم تكن فرضاً عليه بل تكون تحقيقاً لرغباته وطلباته ، وإذا نودى فيه بالإصلاح ، لم يكن نداء أجوف بلا صدى ، بل يكون فيه المنادى لسان من ينادى ...

وليس الفلاح المصرى أمياً لأنه محروم من مدرسة ومن مدرسين ، أولآه يعوزه القانون الشديد ليخرجه من حيز الجهالة ، بل هو أمى لأنه لم يبلغ بعد في حضارته الدرجة التى يكون فيها عقله مهياً لقبول العلم . واليوم الذى يبلغ فيه الفلاح المصرى هذه

التكويني ، لأننا نميل إلى القول بأن الحياة الاقتصادية من خلق الانسان ، وليس كما يقول كارل مارك أن الإنسان من خلق الحياة الاقتصادية في تطوره الحضارى .

لقد اصطلح علماء الاجتماع على تقسيم عقليات المجتمعات إلى نوعين : النوع الأول يعرف بالعقلية السحرية ، والنوع الثانى يعرف بالعقلية الوضعية ؛ والنوع الأول من العقليات سمة الشعوب المتأخرة ، والنوع الثانى سمة الشعوب المتحضرة . ولا بد لكل مجتمع من أن يمر أولاً بالمرحلة السحرية وأدوارها ، ثم ينتهى إلى المرحلة الوضعية .

أما المرحلة السحرية في المجتمعات فتتميز بتفشي المعتقدات الشعبية وعدم التميز الواضح بين سبب ومسبب حتى تكاد الظواهر كلها تختلط وتنسب إلى قوى غامضة ومجهولة . والارتباط المنطقي يكاد أن يكون معدوماً في عقول الناس في هذه المرحلة ، فالمرضى يرجع إلى قوة غامضة قد تكون الزار في أغلب الأحيان وما إلى ذلك مما يدل على تفكك الرابطة المنطقية في العقول ، أما المرحلة الوضعية فمكس ذلك تماماً ...

وواضح من هذا أن الفلاح المصرى لا يزال في المرحلة السحرية ، وعلينا إذا أردنا له تقدماً أن نجعل مرحلة الانتقال من الحالة السحرية إلى الحالة الوضعية .

ذلك هو العامل التكويني ، فعلياً إذاً أن نعمل على أن يبلغ فلاحنا المرحلة الوضعية بكل ما أوتينا من مجهود ، فذلك هو السبيل المنشود ...

ودراسة التاريخ تدلنا على أنه حينما وجدت الآلة انبثقت الحضارة ، ذلك لأن الآلة أثرت في عقلية من يمارسها ، إنها تطبع العقل بالطابع الوضعى ، طابع القانون الذى يربط بين سبب ومسبب ... فالآلة تدور ، ولكنها تدور وفق نظام متماسك لا يلبس أن يتكيف به عقل من يمارسها ، ومن هنا لا تكون رسالة الآلة رسالة إنتاج بقدر ما هي رسالة عقليات وحضارات . تدور الآلة ، فلا يلبث التفكير الفلك أن يتناسك ، ذلك لأن من طبيعة الانسان أن يدرك بالفكر ما يعمل باليد والآلة تقتضى نظاماً وقانوناً يلمسه عامل الآلة باليد ويشاهده بالعين فلا

الدرجة لن يموزه قانون يمهّد أو ساطة تهدد ، بل يندفع إلى طلب العلم من تلقاء نفسه .

أما والفلاح المصرى لم يبلغ بعد الدرجة التى يكون فيها عقله مهياً للعلم بدليل إخفاق التعليم الإلزامى الإخفاق الذريع على رغم ما يكلفه من مئات الألوف من الجنيهات ، فإن القانون سيخفق والمدرسة ستقلق وتلك الأمانى المراض لن تتحقق .

إن الأمية في الفلاح المصرى ظاهرة طبيعية تتحول مع التحول الطبيعى للفلاح ، وتظهر أو تنمحى تبعاً لما يبلغه الفلاح من الارتقاء في سلم الحضارة . وليس في الإمكان أن يقضى قانون وضعى على قانون طبيعى . وليس في الإمكان أن يقضى قانون مكافئة الأمية الوضعى على قانون الأمية الطبيعى اللازم لحالة الفلاح الحضارية .

إن رسالتنا هي أن نبليغ بفلاحنا ذروة الرقى ، وأن نجعل بين القرية والمدنية تكاملاً من حيث درجة الحضارة ، ولن يكون هذا بفتح المدارس وإعداد المدرسين بل بالاتجاه إلى الفلاح نفسه ، فإن المدرسة ظاهرة من ظواهر ارتقائه فحسب .

علينا أن نبذر بذور الحضارة في الفلاح المصرى ، بأن نجعل من قوانين نموه الطبيعية . إن للمجتمعات في نموها قوانين ليس في طاقة الفرد أن يثيرها ، وإنما في طاقته أن يتدبرها وبمعدل من مراحلها ، فهي أشبه شئ بقوانين نمو الأفراد ، ليس في طاقة أحد أن يثب بالطفل إلى مرحلة الرجولة دون أن يمر بأدواره الطبيعية . والذين ظنوا أن في قدرة الفرد أن يخلق ويبدع في المجتمع مخطئون ، فإن دور الفرد أو دور المصلح في الحياة الاجتماعية دور ثانوى لا يعدو أن يكون تدبيراً وتوجيهاً .

كل ما نملك إذاً هو أن ندرس الفلاح وأن نتدبر قوانين نموه ثم ندفع به إلى الأمام في طريقه الطبيعى .

والواقع أن الفلاح المصرى يتقدم ببطء ، إذا قارناه بأمثاله في هم أوروبا وذلك يرجع إلى عاملين :

١ -- العامل الاقتصادى .

٢ -- العامل التكويني .

والواقع أن العامل الاقتصادى في رأينا نتيجة للعامل

أما في البلدان التي لم تتقدم فيها الصناعة فالأمر يختلف عن ذلك . ففي أسبانيا ٥٤ ٪ وفي الهند ٩٠ ٪ (١) الخ .

من كل ما تقدم نستطيع أن نستخلص ما يلي :

١ - أن الحضارة تولد قبل أن يولد التعليم وما التعليم في الواقع إلا أداة للحضارة تستغلها لاطراد نموها ونموها .

٢ - من أكبر العوامل التي تلد الحضارة نشر الصناعة وظهور المنتجات الصناعية لما يستتبع ذلك من تكييف عقلية الشعب بالقالب الوضعي الحضاري .

٣ - الظواهر الاجتماعية وفيها ظاهرة الأمية لا يمكن القضاء عليها بقانون لأن لها مراحلها الخاصة وعواملها الخاصة . ليس إذاً لب المشكلة في أمية الفلاح ، وإنما في حالة الفلاح العقلية ونصيبها من قبول العلم .

فؤاد عوصمه واصف

ليسانسيه في العلوم الفلسفية

Ibid (١)

صرر هديشا :

دور القرآن في دمشق

لمؤرخ دمشق ، قاضي القضاة ، النعمي المتوفى سنة ٩٢٧ هـ

عارضه بأربع نسخ وعلق عليه وذيله

صلاح الدين المنجد

مقدمة واسعة في نشأة المدارس في الإسلام

خمس ملاحق تاريخية آثاره - ثلاثة عشر فهرساً

ثمنه ١٥ قرشاً عدا البريد

يطلب من مكتبة عبيد إخوان بدمشق

يلت طويلاً حتى يدركه بالفكر ، وبصبح القانون والنظام من طبيعة تفكيره ؛ لقد سبق الانسان العامل (Homo Faber) الانسان المفكر (Homo Sapiens) في أدوار التاريخ كلها ، وما الصيغ والرموز التي يصطنعها الفكر في الواقع إلا تجريدات لوقائع ملموسة باليد ومشاهدة بالعين .

نحن إذاً ننشد العقلية الوضعية كخطوة أولى من خطوات الإصلاح ، وليس من سبيل إلى تحقيق هذا غير الآلة . ولنا معنى بذلك أوضاع الصناعات الضخمة والآلات العظيمة مما قد لا يتيسر لنا الآن ، وإنما معنى من الآلة صنعت أو كبرت كمنى النظام والترابط والقانون . وإن في قدرة الصناعات الزراعية البسيطة تحقيق ما نرجوه ، وهذه الدائمارك ، تلك البلاد الصغيرة لقد حققت حضارة عظيمة تعد من أرق الحضارات الأوروبية على أساس هذه الصناعات الزراعية البسيطة .

كأن مشروع مكافحة الأمية مصيره الاخفاق لأن الأرض لم تعد ولم تمبّد بعد . وإنما السبيل إلى تحقيق هذا المشروع هو إيجاد العقلية الوضعية ، عقلية الحضارة والمدنية التي تلتبس سبل التقدم في مجال العلم .

والذي يدلنا دلالة قاطمة على أن الصناعات تهىء العقل الجمي لطلب العلم والاستزادة منه ذلك الاحصاء الذي يدلنا على أنه في سنة ١٥٠٠ م لم يكن أكثر من ١٠ ٪ من شعوب أوروبا الغربية حاصلين على قدر من الثقافة . وفي سنة ١٧٠٠ م ارتفعت النسبة قليلاً حتى إذا جاءت سنة ١٨٠٠ م ، وظهرت المنتجات الصناعية في أوروبا بلغت نسبة المتعلمين نحو ٧٥ ٪ ؛ أي أنه في أقل من قرن واحد ارتفعت النسبة بمقدار ٦٥ ٪ (١) .

وبمقابلة بعض البلدان الصناعية بغير الصناعية يتضح مقام نصيب الصناعة في تهيئة الشعب لقبول التعليم نتيجة للعقلية الوضعية .

ففي كل من المملكة المتحدة (بريطانيا) وألمانيا واليابان لا يوجد غير ١ ٪ لا يعرفون القراءة والكتابة . وفي أمريكا ٦ ٪ وفرنسا ٨ ٪ وبلجيكا ٩ ٪ وجميعها من البلدان الصناعية .

Changing culture and changing governments : H . (١)
Rugg